الشعر الفارسى الاسلامى

الدكتور طه ندا

أراد مؤرخو الأدب أن يحددوا تحديدا دقيقا الزمن الذى ظهر فيه الشعر الفارسى بعد الاسلام . وبذلوا كثيرا من المحاولات فى هذا الميدان أدت بهم الى اختلافات طويلة لم ينتهوا بعدها الى تحديد الزمن الذى ظهر فيه هذا الشعر ، ذلك لأنهم لم يهتدوا فى صورة قاطعة الى أول شاعر قال هذا الشعر بعد الاسلام .

ولنتناول بالعرض والتحليل شيئا من محاولاتهم هذه ثم ننتهى بعد ذلك الى النتائج التى نطمئن اليها بعد المناقشة والتحليل .

* * *

(١) شعر يزيد بن مفرغ :

أول نموذج وصلنا من الأشعار الفارسية هو ما قاله يزيد بن مفرغ . وخلاصة الخبر الذى وردت فيه هذه الأشعار أن عباد بن زياد عين حاكما على سجستان فى خلافة يزيد بن معاوية (٦٠—٦٤هـ - ٦٧٩—٦٨٣م) فأراد يزيد ابن مفرغ الشاعر المعروف أن يصحبه فى هذه الرحلة . ولم يكن بين هذا الشاعر وبين عباد بن زياد توافق تام فى الخلق والمزاج ، فقد كان الأول نزقا عجولا والثانى ظريفا مملولا . وقد حاول عبيد الله بن زياد أخو عباد أن يمنع الشاعر من صحبته مخافة أن يقع بينهما ما يسبب النفرة والفرقة ويؤدى الى اللوم والهجاء فلم يستطع . وكانت نتيجة هذه المصاحبة ما خشيه عبيد الله ، ذلك أن عبادا كان عظيم اللحية فعبثت بها الريح أثناء الطريق . وأثار منظرها الشاعر فانفلت لسانه بهذا البيت من الشعر :

ألا ليت اللحى كانت حشيشا فنعلفها خيول المسلمينا

وبلغ البيت مسامع عباد فأثار غضبه ، وأهمل اعطاء الشاعر حتى ركبته الديون فهجا عبادا . وكانت هذه فرصة مواتية للانتقام من الشاعر فسجنه ثم أفرج عنه بعد ذلك . فانتقل من سجستان الى الشام يهجو عبادا وآل زياد

فى كل مكان حتى شاع هذا الهجاء وبلغ عبيد الله بن زياد فى البصرة الذى تربص به حتى قبض عليه وسقاه نبيذا قد خلط به الشرم فأسهل بطنه وأخذ يطوف به فى أنحاء البصرة وهو على تلك الحال السيئة . وأراد أن يبالغ فى التنكيل به فقرن معه هرة وخنزيرة فكان يزيد يسلح طول الطريق والصبيان يتبعونه ويعبثون به ويقولون له بالفارسية « اين چيست » ؟ أى ما هذا ؟ فيجيبهم :

آبست نبيذ است عصارات زبيب است
سميه روسبيد است [1]

فهذه هى الأشعار وهذا هو خبرها :

وهذه الأشعار تعد أقدم نموذج وصل الينا من الشعر الفارسى بعد الاسلام لأنها كما ترى قيلت فى خلافة يزيد . ولكن لا يمكن اعتبارها عملا أدبيا كما لا يمكن تأريخ نشأة الشعر الفارسى الاسلامى بها لأنها نوع من الشعر العامى الذى يقصد فيه الى سهولة الأوزان وقصر الفقرات وتفاهة المعانى لتنال اعجاب العامة وترسخ فى أذهانهم وتذيع على ألسنتهم .

(٢) مثال آخر :

المثال الثانى الذى وصلنا من الشعر الفارسى بعد هذه هو الذى أورده الطبرى فى حوادث سنة ثمان ومائة[2]، وذكر فيه أن أسد بن عبد الله غزا الختل واختلفوا فى نتيجة هذه الغزوة فقال بعضهم انه انتصر فى غزوته وقال البعض الآخر انه هزم ، فتغنى عليه الصبيان :

از ختـــــلان آمدى برو تبـــــاه آمدى[3]

(١) معناه : انه ماء انه نبيذ انه عصارات زبيب وسميه وجهها أبيض ، وفى رواية أخرى سميه روسبى است بدل روى سپيد ، وروسبى بمعنى الناصعة والفاخرة ، وفى مقالة للدكتور ابراهيم أمين الشواربى بالعدد ٨ من مجلة كلية الآداب سنة ١٩٤٦ يذكر « أن الشاعر أراد بهذه العبارات أن تشيع روح يأسنا بين الصبية فتظهر لهم بمظهر سيئة فجاءت أقرب ما تكون الى لغة الأطفال التى لا تعرف التكلف والتصنع . ولا شك أن هذه العبارات قد شاعت فى البصرة وتناقلها الصبى فى ملاعبهم ، فأما الأحفاد فقد ظنوا أن سميه هى الخنزيرة التى يجرها لأنه كان يسميها بهذا الاسم ، وأما الرجال فقد عرفوا مكان التمويض الذى وشت به هذه التسمية وعرفوا أن الشاعر قد انتقم لنفسه بهذه العبارات البسيطة الساذجة مما ناله من شر وتعذيب على يدى آل زياد » . انظر أيضا هذه القصة فى الأغانى ج ١٧ ، والبيان والتبيين ج ١ ص ١٤٣ ط لجنة التأليف ١٩٤٨م .

(٢) الطبرى : ص ٣٨٩ ج ٥ ط الاستقامة .

(٣) معناها : جئت من ختـــــلان فذهب نفد جئت مهزوما

وقال فريق ان أسدا رجع من هذه الغزوة مخذولا فقال أهل خراسان[1] :

از ختلان آمدی برو تباه آمدی
ببدل فراز آمدی[2]

وقد ذكر الطبرى فى حوادث سنة تسع عشرة ومائة غزوة أخرى لأسد فى الختل لم ينله فيها التوفيق . والخبر هناك طويل لا داعى لذكره[3] . ويقال انه لما رجع من هذه الغزوة قيل له بالفارسية :

از ختلان آمديه برو تباه آمديه
آبار باز آمديه خشك نزار آمديه[4]

والموقف من هذه الأشعار لا يختلف عن الموقف الذى وقفناه من سابقتها لأن ظروف القصة ونوع الأشعار مما يدل على أنها أشعار عامية .

(٣) شعر أبى العباس المروزى :

وهناك الرواية المعروفة التى ذكرها عوفى ونسب فيها الى أبى العباس المروزى أولوية الشعر الفارسى الاسلامى[5] . فيروى عوفى أنه عند زيارة المأمون مدينة مرو كان هناك من يسمى عباسا . وكان لا يقاس ، وكان له فى علم الشعر مهارة كاملة وفى دقائق اللغتين بصر شامل فمدح أمير المؤمنين بشعر فارسى ومطلع قصيدته :

اى رسانيده بدولت فرق خود تافرقدين
كسترانيده بجود وفضل در عالم يدين[6]
مر خلافت را تو شايسته چومردم ديده را
دين يزدان را تو بايسته چو رخ را هر دو عين[7]

(١) الطبرى : ص ٣٩٠ ج ٥
(٢) معناها : جئت من ختـــــلان فاذهب فقد جئت مهزوما
وجئت جبانا
(٣) الطبرى : ص ٤٤٣ ج ٥
(٤) معناها : جئت من ختـــــلان فاذهب فقد جئت مهزوما
ورجعت مجـــــروحا وجئت عاجزا ضعيفا
(٥) لباب الألباب : ص ٢١ ج ١ ط ليدن .
(٦) معناها : يامن أوصلت بالسعد مفرقك الى الفرقدين
ومددت فى العالم بالجود والفضل اليدين
(٧) معناها : أنت لازم للخلافة لزوم انسان العين للعين
وأنت لازم للدين انه لزوم العينين للوجه

وفى هذه القصيدة يقول :

كسى بر بن منوال پيش ازمن چنين شعرى نگفت
موزبان بارسى را هست تا اين نوع بين[1]
ليك زآن كفتم من اين مدحت ترا تا اين لغت
كيرد از مدح وثناء حضرت تو زيب وزين[2]

ويتابع عوفى روايته فيقول ان عباسا بعد أن أنشد هذه القصيدة أكرمه أمير المؤمنين ووصله بألف دينار وجعله موضع العناية والرعاية . فلما جاء عهد دولة آل سامان ارتفعت راية الكلام وظهر الشعراء العظام .

هذه هى رواية عوفى وعليها جملة انتقادات منها ما ذكره العلامة القزوينى ومنها ما ذكره جلال همائى ومنها ما ذكرته أنا ولنقدم أولا انتقادات القزوينى[3] :

١ ان الايرانيين أخذوا عروضهم عن العروض العربى الذى وضعه الخليل بن أحمد وقد أحسوا أن من الأوزان العربية ما لا يلائم طبعهم مثل الطويل والمديد وأن منها ما يحتاج تعديلا يصير به فارسيا وان كان فى أصله عربيا . مثال ذلك بحر الهزج والرمل فهو عند العرب مسدس فى أصله ولكنهم فى الفارسية جعلوه مثمناً . ولكى يصلوا الى قوانين الشعر الفارسى وفق العروض العربى ، ولكى يصلوا الى تعديل ما يريدون تعديله منه يحتاج الأمر الى وقت طويل حتى ينتشر هذا العروض العربى أولا فى بلاد ايران المترامية الأطراف والى وقت آخر يقضونه فى التمرين على قول الشعر بهذا العروض ثم اجراء التعديل فيه الذى يدعو اليه الذوق والطابع الخاص . والقصيدة المنسوبة الى عباس المروزى من بحر الرمل المثمن المقصور وقد قيلت فى حضرة المأمون

(١) لم يشر أحد قبل شعر كهذا على هذا المنوال وهناك فرق بين هذا القرس وبين هذا النوع .

(٢) معناها : لكى أنشدت من ذلك النوع هذا المديح حتى تصيبها هذه اللغة من مدحك وثنائك أجمل وأزين .

(٣) بيست مقاله قزوينى : قديمترين شعر فارسى بعد از اسلام .

سنة ١٩٣ هـ ٨٠٨ م . أي بعد وفاة الخليل بن أحمد سنة ١٧٥ هـ ٧٩١ م بثمانية عشر عاما وهي مدة قصيرة جدا في نظر الأستاذ القزويني لا تكفي لأن يتمثل شعراء الفرس العروض العربي أولا ولأن يدخلوا فيه التعديلات التي دعت اليها حاجتهم الخاصة ثانيا .

واعتراض القزويني هذا وجيه في ذاته ، ولكن لنا اعتراضا على هذا الاعتراض — ان صح التعبير — سنذكره فيما بعد .

٢ — ان هذه الأبيات التي ذكرها عوفي في لباب الألباب الذي ألف في حدود ٦١٧هـ — ١٢٣٠م يعني بعد أكثر من أربعمائة سنة من عصر المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ - ٨١٣ - ٨٣٣م) لم يذكرها غيره ممن تقدموا عوفي أو عاصروه وهم كثيرون ، ولم يتعرضوا لهذه القصة مثل رشيد الدين الوطواط صاحب حدائق السحر[١] ، ونظامي العروضي السمرقندي صاحب چهار مقاله[٢] ، وشمس قيس صاحب معايير أشعار العجم[٣] . فبعد العهد بين المؤلف وتاريخ القصة وسكوت سائر المؤرخين عن ذكرها أمر يلفت النظر ويولد الشك في موضوع الرواية التي انفرد بها عوفي .

٣ من اعتراضات القزويني أيضا وفرة الألفاظ العربية في هذه القصيدة ولم تكن اللغة العربية في نظره قد أغارت على اللغة الفارسية بهذا القدر .

ولست أميل الى الاقتناع بهذا الاعتراض الذي أورده القزويني لأن المنطق يقضي بأن يكون أثر العربية أشد وأكبر في أول الأمر ثم يقل تدريجا حتى نصل الى عصر الفردوسي حين بلغت العصبية للفارسية أقصاها اذ حاول أن يخلي الشاهنامه من الألفاظ العربية ، ولأن التطور التاريخي يقضي

(١) عاش في الفترة بين ٤٨٠ — ٥٧٣ هـ . وألف كتابه حدائق السحر في الفترة الواقعة بين ٥٥١ هـ و ٥٦٨ هـ .

(٢) عاش نظامي العروضي من أواخر القرن الخامس الى حوالي منتصف القرن السادس ٥٥٢ هـ وألف كتابه في حدود سنة ٥٥٠ هـ .

(٣) عاش شمس قيس في أواخر الفترة السادس حتى منتصف السابع تقريبا حوالي ٦٥٨ هـ ، وتم تأليف كتابه المعجم في حدود ٦٣٠ هـ .

بهذا أيضا . فالنهضة الأدبية الفارسية بدأت تظهر فى عهد الصفاريين ثم اشتدت وقويت فى عهد السامانيين ، ثم بلغت أشدها فيما تلا ذلك من عهود . وطبيعى أن يكون الأدب الفارسى متأثرا فى أول عهده باللغة العربية الى حد أكبر من ذلك الأدب الذى وجد بعد ذلك . وليس من المعقول . حين يبدأ الفرس الانشاد بالفارسية أن يهجروا العربية ، وقد كانت لغتهم قرونا طويلة . ذلك الهجر الذى ينتظره منهم القزوينى . واذا لم تكن العربية قد أغارت على الفارسية فى القرنين الأول والثانى للهجرة أكبر الاغارة فمتى كان ذلك اذن ؟

وممن شك أيضا فى صحة هذه الأبيات وسلامة تلك الرواية التى رواها عوفى براون فى كتابه عن تاريخ الأدب الفارسى[1].

وهنا تنتهى اعتراضات القزوينى .

وبعد اعتراضات القزوينى . تأتى اعتراضات جلال همائى[2] . وفيما يأتى ملخصها :

١ - ذهب المأمون الى مرو فى جمادى الأولى سنة ١٩٣هـ وقد بويع بالخلافة سنة ١٩٨هـ أثناء اقامته هناك . وكان قبل أن يبايع بالخلافة يلقب بالامام . ولما كان شعر المروزى قد ورد فيه ذكر الخلافة فينبغى أن يكون هذا الشعر قد قيل فى مدح المأمون بعد اسناد الخلافة اليه أى سنة ١٩٨هـ . ولكن كلام عوفى يفهم منه أن هذه القصيدة قيلت فى مدحه عند وروده مرو وكان ذلك فى سنة ١٩٣ هـ ولم يكن المأمون قد أصبح خليفة بعد .

٢ - طراز الكلام والأسلوب والاهتمام بالصناعة اللفظية مثل «شايسته» و «بايسته» يدل على أن هذا الكلام ليس من طراز الكلام فى القرن الثانى ولا الثالث بل ولا الرابع ولكنه أشبه بكلام القرن الخامس .

(١) Browne : Lit. His. of Persia Vol. I p. 13. 440-452. Cambridge 1951.

(٢) تاريخ أدبيات ايران : ص ٣٣٧ ج ٢

الى هنا تنتهى اعتراضات هماش . وأود أن أضيف الى اعتراضات القزوينى وهماش ما عندى من الاعتراضات :

١ — يستدل عوفى من شعر عباس على أن هذا الشعر هو أول ماقيل بالفارسية ولكن عباسا يقول لم يقل أحد قبلى شعرا كهذا على هذا المنوال . ومفهوم هذا الكلام أنه من الجائز أن يكون هناك من قال شعرا قبله ولكن على غير هذا المنوال فكأن عباسا يريد أن يدعى لنفسه فخر الاجادة فى الكلام على هذا المنوال لا مجرد فخر السبق .

٢ — عباس هذا غير معروف الشخصية رغم أهميته هذه التى خلعها عليه عوفى . ويبدو أن «عوفى» نفسه لا يعرف عنه شيئا ولا قرأ قصيدته التى اقتطع منها هذه الأبيات السابقة .

٣ — مادام عباس هذا قد قال الشعر بالفارسية فى عهد المأمون فلماذا لم يتابعه الشعراء فى هذا المضمار ؟ وفى حياة المأمون وصلته الطيبة بالفرس فرصة أتيحت لهم لاعلاء شأن الفارسية ومتابعة الانشاد بها .

ويقدم لنا عوفى بيده مادة الاعتراض فهو يقول : « ان الفضلاء لما رأوا ما ناله عباس من التكريم استحث كل واحد منهم طبعه ونقشوا نقوش الفضل بقلم البيان على صفحة الزمان » فاذا كان هذا صحيحا فأين هى آثار هؤلاء ؟ وأين آثار طبعهم التى استحثوها ؟ وأين الانتاج الدال على الفضل الذى نقشوه بقلم البيان على صفحة الزمان ؟ ولماذا ضاع هذا كله واختفى ولم يظهر أحد من الشعراء منذ عهد عباس هذا حتى زمن الطاهريين والصفاريين الذين يتحدث عنهم عوفى مع ذلك فيقول ان عدد من ظهر فى عهدهم من الشعراء محدود .

٤ — وهذا الانقطاع الزمنى بين عباس وبين شعراء آل طاهر وآل ليث وآل سامان ماذا كان سببه ما دام عباس قد فتح أمامهم الطريق ونال ما نال من تكريم ؟ فهذه الفجوة فى رواية عوفى تحمل على الشك فى صحة الموضوع .

٥ ذكر جاكسون أن عباسا قد ولد سنة ٨٠٠م[1]. فان صح ما ذكره فكيف يتأتى لعباس فى سنة ٨٠٩ م – ١٩٣ هـ أى بعد تسع سنوات من مولده أن يقول قصيدة بالفارسية فى مدح المأمون[2] ؟

والرأى عندى أمام كل هذه العوامل :

١ – أن عباسا هذا – ان صح وجوده – لم يكن فى زمن المأمون .

٢ – وأنه قريب عهد من نشأة الشعر الفارسى الحقيقية أى من عهد آل طاهر[3] وآل ليث[4] وآل سامان[5] . وهذا يفرقون عوفى « لم يظهر أحد من الشعراء بعد عباس حتى زمن آل طاهر وليث . . . » .

٣ – وأنه لو كان عباس هذا – ان صح وجوده فى هذه الفترة – قد قال هذا الشعر حقيقة فى مناسبة استقبال المأمون بمدينة مرو لكان الأرجح أن تبقى القصيدة أو يبقى أغلبها لأن مناسبة تاريخية عظيمة كهذه كانت كفيلة بتخليد هذا الشعر . وهى على أى حال فرصة ما كان الفرس يهملون استغلالها فى الدعاية لأنفسهم من الناحية الأدبية على الأقل . ومما كان يكفل أيضا بقاء هذا الشعر أن أهل الفضل الخلود قدوة لهم كما يذكر عوفى .

وهذا كله مما يؤيد رأينا فى أن هذه الأبيات لشخص ما قد يكون عباسا هذا وقد يكون عباسا آخر ومدوحه مأمونا آخر ولكنها على أى حال لم تقل فى زمن المأمون الخليفة لانقطاع الرمق بينها وبين مثلاها . كما أنها لهذا السبب نفسه ينبغى أن تكون قريبة العهد من عصر نشأة الشعر الحقيقية أى من عصر آل طاهر وآل ليث .

(١) لم يشر جاكسون الى المصدر الذى استند عليه فى تحديد تاريخ عباس الفرغانى .

(٢) Jackson : Early Persian Poets, p. 16. New York. 1920

(٣) زيارة المأمون مرو كانت فى سنة ١٩٣ هـ ودولة الطاهريين قامت فى سنة ٢٠٥ هـ ٨٢٠ – ٨٧٢ م .

(٤) دولة آل ليث أو الدولة الصفارية من ٢٥٤ – ٢٩٠ هـ ٨٦٨ – ٩٠٢ م .

(٥) دولة آل سامان من ٢٦١ – ٣٨٩ هـ ٨٧٤ – ٩٩٨ م .

(٤) أشعار ابن البعيث :

وقد أورد الطبرى رواية أخرى ينسبون فيها الى ابن البعيث أشعاراً بالفارسية . وابن البعيث هذا هو محمد بن البعيث بن حليس وكان قد ثار على المتوكل فى آذربيجان فجيء به أسيرا سنة ٢٣٤ هو حبس ، الا أنه استطاع الهروب الى مكانه فى آذربيجان فوجه اليه المتوكل حمدويه بن على بن الخضل السعدى بعد أن عينه واليا على آذربيجان . وهناك جمع حمدويه الجند والشاكريه وزحف الى ابن البعيث الذى لجأ الى مدينة مرند الحصينة ، فلما طالت مدة الحصار أرسل اليه الخليفة أكثر من جيش لم يوفق الى القبض عليه حتى وفق الى ذلك بغا الشرابى بمعونة حمدويه واستطاعت جيوش الخليفة أن تأخذه أسيرا فى تلك السنة ٢٣٤ هـ . ولما وصلوا الى الخليفة وكان ذلك فى سنة ٢٣٥ هـ أمر بضرب عنقه فأنشد ابن البعيث الأبيات العربية الآتية التى كانت سببا فى عفو المتوكل عنه :

أبى الناس الا أنك اليوم قاتلى امام الهدى والصفح بالناس أجمل
وهل أنا الا جبلة من خطيئة وعفوك من نور النبوة يجمل
فانك خير السابقين الى العلا ولا شك أن خير الفعالين تفعل

ثم مات بعد هذه الحادثة بزمن قصير . وكان ابن البعيث أديبا شجاعا له أخبار وأحاديث[1] .

وهذه الرواية لا تثبت أمام النقد فالطبرى لايعين لنا السند الذى أخذ عنه هذا الخبر خبر الأشعار الفارسية التى لابن البعيث كما أنه لا يعين لنا اسم واحد من أولئك الرواة الذين رووا أشعاره الفارسية . وأهم من هذا وذاك أنه لا يقدم لنا مثالا من تلك الأشعار التى هى الدليل الأول فى هذه الدعوى .

(١) الطبرى : ص ٣٥٤ - ٧

(٥) أشعار أبي الأشعث القمي :

ومن أمثال هذه الروايات ما يرويه ياقوت عن أبي مسلم بن بحر[1] الذي تولى ديوان الخراج والضياع بأصفهان سنة ثلاثمائة من أنه كان يروى أشعارا بالفارسية لأبي الأشعث القمي في هذا المعنى :

يا للشباب وغصنه النضر والعيش في أيامه الزهر
لو دام لي عهد المتاع به وأمنت فيه حوادث الدهر
لكنه لي معقب هرما وهو الذير بآخر العمر[2]

وروى له أبو مسلم أيضا الأبيات الآتية في أبي المعمر :

هل أنت مبلغ هذا القائد البطل عني مقالة طب غير ذي خطل
ان كنت اخطأت قرطاسا عمدت له فأنت في رمي قلبي من بني ثعل

ومما ذكره أبو مسلم هذا يستفاد :

أن أبا الأشعث القمي قال أولا هذه الأبيات بالفارسية .

وأنه كان معاصرا لأبي مسلم .

ولكننا ننكر على أبي الأشعث القمي أن يكون أول قائل للشعر الفارسي بعد الاسلام وذلك :

لأن الدليل الأساسي وهو نص الأشعار غير موجود .

ولأن أبا الأشعث كان معاصرا لأبي مسلم الذي توفي سنة ٣٣٢ هـ . ومعنى هذا أن أبا مسلم وأبا الأشعث كانا معاصرين لشهيد البلخي وشهيد نفسه كان معاصرا للرودكي . وليس الرودكي أو شهيد أول من قال الشعر الفارسي الاسلامي . وعلى هذا يسقط من تقديرنا أن يكون أبو الأشعث هو أول قائل للشعر الفارسي الاسلامي لأنه كان معاصرا لهذين الشاعرين الكبيرين .

(١) ٢٥٤ - ٣٢٢ هـ .

(٢) معجم الأدباء : ص ٣٦ ج ١٨ ط مصر ترجمة احمد بن بحر الأصفهاني .

(٦) أشعار أبي حفص الصغدي :

وممن ينسب اليه الأولوية في قول الشعر الفارسي أبو حفص الصغدي . ذكر هذا صاحب مجمع الفصحا ، فقال انه أول من شعر بالفارسية بعد بهرام جور[١]. وكان يعيش في المائة الأولى . وقد ذكر له من شعره هذا البيت[٢] :

آهوى كوهي در دشت چكونه دودا
او ندارد يار بى يار چكونه بودا[٣]

ويسلم صاحب المعجم بأن أبا حفص حكيم بن أحوص الصغدي أول من قال الشعر الفارسي وكان من صغد سمرقند وكانت له اليد الطولى في صناعة الموسيقى . . . الخ . ولكن صاحب المعجم يذكر بعد ذلك أنه كان يعيش في سنة ثلاثمائة هجرية[٤] .

والبيت الذي أورده صاحب مجمع الفصحا لأبي حفص بيت رقيق جميل ولكنه وحده لا يكفي لأن ننسب اليه أنه أول من قال الشعر . هذا شيء ، وشيء آخر أن صاحب المعجم[٥] اختلف مع صاحب المجمع[٦] في الوقت الذي عاش فيه أبوحفص فبينما يذكر الأول أنه كان موجودا في سنة ٣٠٠ هـ يذكر الثاني أنه كان من رجال المائة الأولى . وهو اختلاف له أهميته الكبيرة فان صح ما يقوله صاحب المعجم كان أبو حفص من معاصري شهيد البلخي والرودكي وزالت عنه صفة التقدم والأولوية في هذا المضمار .

(١) بهرام جور من ملوك الدولة الساسانية قبل الاسلام . وعلى هذا يكون مفهوم كلام صاحب مجمع الفصحا أن أبا حفص الصغدي أول من قال الشعر الفارسي بعد الاسلام .

(٢) مجمع الفصحا : ص ٦٤ ج ١

(٣) معناه : كيف يرتع غزال الجبل في الفلاة
انه وحيد فكيف يعيش بلا قرين

(٤) المعجم في معايير أشعار العجم : ص ١٥٠ ط مجلس بايران .

(٥) شمس الدين محمد بن قيس الرازي .

(٦) رضا قولي خان المتخلص بهدايت .

(٧) أشعار حنظلة البادغيسي :

وحنظلة البادغيسي ممن نسب اليهم التقدم في هذا الميدان . وقد اعتمد أهل الرأي على ما ورد خاصا به في جهار مقاله للعروضي السمرقندي . وقد ورد هناك في الحكاية الأولى من مقالة الشعر أن أحمد بن عبد الله الخجستاني[1] سئل : لقد كنت مكاريا فكيف وصلت الى امارة خراسان ؟ فقال : كنت في خجستان من أعمال بادغيس فقرأت ذات يوم ديوان حنظلة البادغيسي فلما وصلت الى هذين البيتين :

مهتری کر بکام شیر در است
شو خطر کن زکام شیر بجوی
یا بزرگی وعز ونعمت وجاه
یا چو مردانت مرگ رویا روی[2]

تولاني شعور باطني فلم أرض مطلقا بتلك الحال التي كنت فيها فبعت الحمير واشتريت فرسا ورحلت من وطني ووصلت الى خدمة علي بن الليث وعمرو بن الليث . . . الى آخر القصة[3] .

وهذه القصة كما جاء فيها على لسان أحمد بن عبد الله الخجستاني . تقرر أن حنظلة البادغيسي كان في ذلك الوقت شاعرا مشهورا وكان له ديوان شعر . ولكن هذه القصة لم تسلم من عوامل الشك في صحتها للأسباب الآتية :

١ — ان هذين البيتين لا يكفيان في تقرير منزلة حنظلة الأدبية وتقديمه على غيره في فنون الشعر الفارسي .

(١) أحمد بن عبد الله الخجستاني نسبة الى خجستان ناحية من جبال هراة في قطيع بادغيس . وكان في أول الأمر من أعوان الصفاريين فما زال عنهم الملك ينضم الى الصفاريين ويرتفع شأنه لديهم ثم طمع في الانفراد بالأمر فاستولى على أغلب بلاد خراسان وحارب عمرو بن الليث الصفاري في نيسابور وهزمه . وقد اتخذ لنفسه عملة نقش عليها اسمه ثم قتل أخيرا بيد غلمانه سنة ٢٦٨ هـ . وامتد حكمه ثماني سنوات من ٢٦٠ - ٢٦٨ هـ ٨٧٤ - ٨٨٢ م .

(٢) معناه : اذ كانت العظمة بين أنياب الأسد الفاتك
فخاطر وانتزعها من فم الأسد
فما أن تنال العظمة والعز والنعمة والجاه
وامّا أن تلقى الموت وجها لوجه كالرجال

(٣) جهار مقاله .

٢ — من الغريب أن يكون لحنظلة ديوان يطالعه الناس ثم لا يبقى منه الا بيتان .

٣ — ان هذين البيتين لم تصح نسبتهما الى حنظلة وحده ، فتاريخ كزيده في الفصل الثاني من الباب الرابع الخاص بذكر ملوك السامانية ينسب هذين البيتين الى سامان جد الملوك السامانية . ويروى هناك أن سامان حين سمع هذه الأبيات تحركت فيه الرجولة فاشتغل عيارا وبعد مدة استولى على مدينة اشنام[١] .

وكانت وفاة حنظلة البادغيسي سنة ٢١٩ هـ أو ٢٢٠ هـ .

(٨) أشعار محمود الوراق :

وهناك محمود الوراق الذي قال عنه صاحب المجمع : « لم يعرف له شعر سوى هذين البيتين »[٢] :

نكارينا به نقد جانت ندهم
كرانى در بها ارزانت ندهم
كرفتم من بجان دامان وصلت
نهم جان در كف ودامانت ندهم[٣]

والبيتان في جارية جميلة كانت لمحمود فأرادها لنفسه محمد بن طاهر آخر سلاطين الطاهريين[٤] .

(٩) أشعار ابن وصيف :

الرواية الباقية هي التي تدعي أن ابن وصيف السجزي أول من قال الشعر الفارسي . وقد عاش محمد بن وصيف في النصف الثاني من القرن الثالث ، وكان من كتاب يعقوب وعمرو بن الليث الصفاري ، وقد ورد

(١) تاريخ كزيده ص ٣٧٩ ط . براون .
(٢) مجمع الفصحا : ص ٥١١ ج ١
(٣) معناها : أيتها الحبيبة لا أطلب فيك مالا
أنت عزيزة القدر فلا أملكك رخيصة
تعلقت بالروح في أذيال وصلك
أعرض روحي للهلاك ولا أفرط في أذيالك
(٤) انتهت الدولة الطاهرية سنة ٣٥٩ هـ ٨٧٢ م .

ذكره فى تاريخ سيستان باعتباره أول شعراء الفرس بعد الاسلام[1]. وذكر عنه مؤلف هذا الكتاب أن الشعراء كانوا يقصدون يعقوب بن الليث فيمدحونه بشعر عربى لا يفهمه فيتولى محمد بن وصيف ترجمته له فى شعر فارسى[2] . ولما قتل يعقوب بن الليث رتبيل وعمارا الخارجى واستولى على هراه وسجستان وكرمان وفارس قال محمد بن وصيف شعرا فى مدحه مطلعه :

ای امیریکه امیران جهان خاص وعام
بنده وجاکر ومولای وسك بند وغلام
أزلی خطی در لوح که ملکی بدهید
به ابی یوسف یعقوب بن اللیث الهمام[3]

وقد تولى همائى نقد هذه الرواية ولم يسلم بصحة الأبيات لأنها لم ترد فى موضع آخر من المصادر الموثوق بها كما أن تاريخ سيستان مجهول المؤلف، والعلم بالمؤلف شيء له قيمته فى تقويم العمل ، وفيه مواضع شبهات كثيرة ، وليست هناك قرائن أخرى فى مصدر آخر تؤيد هذه الرواية[4].

* * *

هكذا رأينا أنهم اختلفوا فى موضوع نشأة الشعر وفى تعيين أول من قاله اختلافا كبيرا ، وأن كل ما ذكر من روايات كان قابلا للطعن من نواح كثيرة مما جعل هناك استحالة فى الوصول الى معرفة يقينية فى هذا الموضوع .

واذا كانت الأمثلة تعوزنا وكان استقراؤها متعذرا فالوصول الى الغرض فليس أمامنا سوى الاستنباط من الظروف والقرائن علّه يهدينا الى فكرة يطمئن اليها العقل والمنطق .

---

(١) تاريخ سيستان لا يعرف مؤلفه ويرجح أن يكون قد كتب بين سنوات ٦٧٥ - ٦٨٠ هـ

(٢) تاريخ سيستان : ص ٢٠٩ ط ايران .

(٣) معناها : أى أميرى يامن له أمراء الدنيا جميعا
عبيد وخدم وأذلة وأتباع
قد خط فى اللوح منذ الأزل أن يعطى الملك
لأبى يوسف يعقوب بن الليث الهمام

(٤) تاريخ أدبيات ايران : ص ٣٥٢ ج ٢

وقبل هذا يجب أن نقرر المسائل الآتية :

١ — أن ما درج عليه مؤرخو الشعر الفارسى من ادعاء السبق لكل من روى عنه بيت من الشعر أو بيتان أمر غير مستقيم . ولو صح أن أبا حفص الصغدى مثلا تقدم زمنيا على سائر الشعراء وصحت نسبة البيت الذى روى عنه ما جاز لنا مع ذلك أن نعده أول الشعراء . وكذلك الحال مع عباس المروزى وحنظلة البادغيسى وغيرهما ، وذلك لأن فنا عظيما كالشعر لا يمكن أن تؤرخ بدايته ببيت من الشعر أو ببيتين لأن هذا البيت لا يصح أن يكون دليلا على بداية فن عظيم . وهناك شرائط لابد من توافرها لكى نقول ان هنا ظاهرة أدبية بدأت أو فنا ولد . من هذه الشرائط أن يكون هناك الأديب أو الفن الذى يصلح لأن تبدأ على يديه هذه الظاهرة فى الأدب أو الفن . واذا قلنا أديب أو فن فمعنى هذا أن الناس أقروا له بواحدة من هاتين الصفتين . ولا يقر الناس له بهذا عادة الا بعد أن يروا مجموعة مناسبة من آثار أدبه وانتاج فنه . ومنها أن يقصد هذا الأديب الى ابتداع هذه الظاهرة وقد يبتدعها هو ابتداعا كاملا وقد يخرج هو الفكرة ويترك لتلاميذه أن يجسموها ويخرجوها حية الى عالم الوجود . واذا ما رجعنا الى ما يقوله علماء النفس عن الابتداع أو الابتكار رأينا أنه ليس الا جمعا لعناصر قديمة وجزئيات معروفة شائعة وصوغها جميعا بحيث يتألف منها بعد هذه الصياغة شكل جديد لم يكن معروفا من قبل . فالجديد فى الابتداع أو الابتكار هو الشكل والغريب فيه على الناس هو هذا المظهر الخارجى وهذه الصياغة الجديدة . أما العناصر والجزئيات التى يضمها هذا المظهر وهذه الصياغة فقديمة معروفة . فاذا ادعينا لواحد من هؤلاء الشعراء أنه أول من قال الشعر الفارسى بعد الاسلام فمعنى هذا أنه أول من ابتدع طريقة القول على هذا النمط ، وما دام الأمر كذلك فأين هى الأمثلة الشعرية القديمة التى ابتدع على أساسها ، مذهبه فى القول ؟ ومن هذه الشرائط الاستمرار فى بذل الجهد والانتاج حتى تكون هناك مجموعة واسعة تمثل خير تمثيل هذه الظاهرة وتؤكد وجودها فى ذهن الأديب وتدلنا بحق على أنها نشأة لظاهرة جديدة وجدت بعد الدرس والقصد ولم تكن مجرد شىء ظهر بالمصادفة وحدها . فأين هى هذه المجموعة الشعرية التى قدمها لنا أحد هؤلاء الشعراء حتى نقول انه البادىء والمتقدم ؟

٢ — ان الأمثلة الشعرية المفردة التي نسبت الى هؤلاء الشعراء على جانب كبير من الرقي الفني وليس فيها أثر المحاولة الأولى . وكان مؤرخو الأدب العربي أدق حين قالوا عن امرىء القيس انه أول جاهلي وصلنا شعره ولم يقولوا انه أول جاهلي قال الشعر .

٣ — والاعتراض الذي ذكره القزويني فيما سبق الخاص بالعروض العربي وحاجة الفرس الى وقت كاف ليتمثلوه أولاً ثم لينشدوا أشعارهم بمقتضاه ثانيا وجيه في حد ذاته من الناحية المنطقية . وقد وعدنا حين أوردناه فيما سبق بالاعتراض عليه . ويتركز اعتراضنا في أن الفنون لا تنشأ أول ما تنشأ وفق قواعد علمية مقررة ، وانما تؤخذ هذه القواعد العلمية من استقراء الأمثلة الموجودة فعلا . واذا كانت الأعوام التي انقضت منذ وفاة الخليل حتى وقت انشاء قصيدة أبي العباس المروزي لا تكفي لأن ينتشر العروض العربي بين الايرانيين ولا لأن يتمثلوه ويهضموه ثم يجروا فيه بعد ذلك ما يشتهون من التعديلات فهذا لا يمنع الفرس أن يقولوا الشعر الفارسي دون أن ينتظروا الخليل حتى يقدم اليهم أولا عروض الشعر العربي . وقد مرت أجيال منذ عرف الشعر العربي الى زمن الخليل ، وكان الشعراء العرب يقولون الشعر في العصر الجاهلي وصدر الاسلام والأموي ولم يكن بين أيديهم تلك القواعد العروضية التي وضعها الخليل . بل ان معاصري الخليل ومن جاءوا بعده ممن يحق لنا أن نسميهم شعراء لم يفكروا فيما وضعه الخليل ولم يرجعوا اليه قبل أن ينشئوا أشعارهم ولم يكن العروض الذي اهتدى اليه واحدا من تلك الدراسات التي تكون الشاعر ، لأن الشعر ذوق واقتدار وطبيعة قبل أن يكون قواعد عروضية ، وما وضع الخليل قواعده الا بعد أن لاحظ أمثلتها في الشعر الذي سبقه واستخرجها منه . وهذا طبيعي لأن الفن يسبق دائما العلم . وقد وضع النحو بعد أن مرت بالعرب أجيال طويلة يتكلمون فيها ولا يلحنون . ووضع قواعد البلاغة بعض الأعاجم الذين ارادوا أن يعرفوا سر بلاغة العرب ليكون لهم بعد العلم بهذه القواعد ، فيما ظنوا ، القدرة على محاكاتهم ومجاراتهم في ميدان البلاغة . وهكذا الحال في كل فن من الفنون .

فاذا كانت المدة التي ذكرها القزويني لا تكفي لأن يقول الفرس شعرا فارسيا على الأوزان التي وضعها الخليل فهذا معقول من ناحية المنطق النظرية . ولكن ما الذي أدرانا أو أدرى القزويني على وجه الخصوص أنهم كانوا

فى انتظار عروض الخليل ليشرعوا فى قول الشعر الفارسى ؟ وما الذى يمنعهم أن يقولوا الشعر قبل أن يوجد هذا العلم كما قال العرب أشعارهم قبل علم الخليل وهم لا تنقصهم الوسائل الطبيعية ، لا العلمية والصناعية ، من ذوق سليم وطبيعة شعرية وقدرة على محاكاة الأشعار العربية التى لا حصر لها والتى حفظوها من قبل وسمعوها وبرع كثير منهم فى انشاء مثلها بالعربية .

وبعد فانى بعد تقديمى لتلك المسائل التى ناقشتها فيما سبق أرى :

أن تعيين أول شاعر فارسى بعد الاسلام ، وليس بين أيدينا سوى ما ناقشناه من الأدلة ، أمر لا يطمئن اليه الباحث .

وأن الشعر الفارسى الاسلامى قد وجد فى رأينا منذ العهود الاسلامية الأولى ولست أشك أن هؤلاء الشعراء الفرس الذين نبغوا فى الشعر العربى قد قصروا نشاطهم على هذا الميدان العربى وحده .

وأنهم اذا كانوا قد نبغوا فى الشعر العربى قبل أن يظهر عروض الخليل فما أجدرهم أن يقولوا الشعر الفارسى بغير حاجة الى هذا العروض ، وأمامهم النماذج الشعرية العربية التى لا تحصى مما قاله غيرهم أو قالوه أنفسهم .

وان الحاحظ يذكر لنا أن الاعرابى قد يتملح بأن يدخل فى شعره شيئا من كلام الفارسية . وضرب لنا أمثلة لذلك من شعر العمانى فى قصيدته التى مدح بها الرشيد[1] ، ومن شعر يزيد ابن مفرغ وقد سبق ذكر هذه الأبيات[2] ، ومن شعر أسود بن أبى كريمة[3] . فاذا كان هذا شأن الأعراب فكيف يكون شأن الفرس .

ولكن اذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تصلنا من هؤلاء الشعراء أمثلة وافية تؤيد هذا الرأى .

أما فى العصر الأموى فواضح أن الشاعر ما كان يستطيع أن يجهر بقوله فى محفل عام أو أمام مسئول من رجال الدولة أو نحو ذلك لأن الدولة كانت شديدة التعصب للعرب وحسبك أن نذكر فى هذا المقام ما نال اسماعيل

(١) البيان والتبيين : ص ١٤١ ج ١ ط لجنة التأليف ١٩٤٨ .
(٢) نفس المصدر : ص ١٤٣ ج ١ .
(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

ابن يسار على يد الخليفة هشام حين أنشده قصيدة عربية فخر فيها بالعجم [1]. وكل ما قيل فى هذا العصر لا يعدو دائرة ضيقة جدا من خاصة الأصدقاء والندماء ومن بهم الى الفرس ميل وهوى . والشاعر لا يريد بطبيعة الحال لمثل هذا الشعر أن يذيع وينتشر مخافة العقاب . ومن ثم سهل ضياعه .

أما فى العصر العباسى فالسبب فى ضياع مثل هذه الأشعار يختلف ؛ ذلك أن الرواة كانوا يأخذون مادة رواياتهم من عرب البادية الذين لم يخالط لسانهم العجمة ، ولم ينقلوا شيئا عن الحضر ولا عن القبائل التى جاورت الحضر .

وكانت همة الرواة — ومن بينهم الموالى — مبذولة الى جمع أخبار العرب وأيامهم وأنسابهم وأشعارهم وغريب لغتهم ولم يفكروا بطبيعة الحال فى الاحتفاظ بشىء من الأثر الفارسى لأنهم انما كانوا يجمعون بضاعتهم مما كان ينفق فى السوق ويروج فى مجالس الخلفاء ويقبل عليه طلاب العلم والأدب . ويروى أن الوليد بن يزيد سأل حمادا الراوية [2] وكان دينمى الأصل ، عن عدد الأبيات التى حفظها فقال : « كثير ولكنى أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون الاسلام » . وهذا النص واضح فى أن الاهتمام كله كان متجها الى شعر العرب وحده وخاصة شعر الجاهلية حتى بلغ ببعضهم الأمر أن ينحل الشعراء العرب المتقدمين قصائد ليست لهم طلبا للجائزة ورغبة فى النوال . فالسبب فى هذا العصر اذن راجع الى الرواية والتدوين .

وتتم هذا الباب بعبارة للدولتشاه يؤيد فيها ما ذهبناه اليه . يقول : « ان شعر العجم لم يعرف حتى عهد آل سامان واذا كان قد قيل فانه لم يدون »[3] .

(١) الأغانى : ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ ج ٤ ط دار الكتب .

(٢) تذكرة الشعراء : ص ١٧ ط بمباى .